علم الشرق وتاريخ العمران

بقلم

المستشرق الفاضل

ميخائيل انجلو جويدى

من أساتذة جامعة رومة

وهي اربع محاضرات ألقاها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة

القاهرة

١٣٤٩

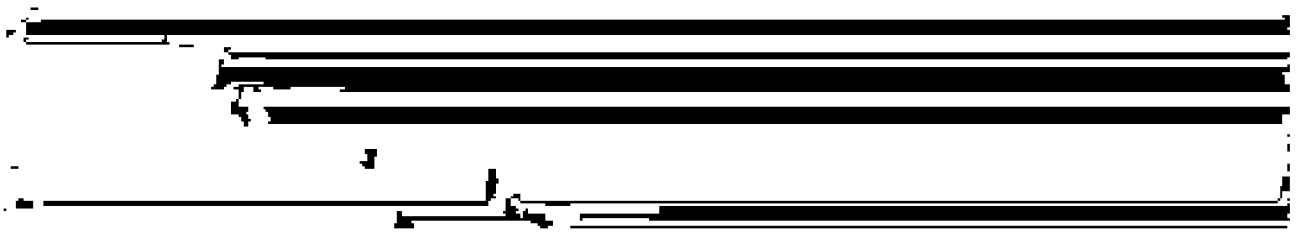

مُقدّمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ☆ وسلام على عباده الذين اصطفى

وبعدُ فان الاستاذ ميكائيل انجلو جُويدي ـ من أساتذة جامعة رومة ـ أحدُ المستشرقين الأفاضل المعروفين في الشرق، لأنه قام بدروس قيّمة في الجامعة المصرية عدة سنوات، ونشر بالعربية كتاب الامام القاسم بن ابراهيم الرسّي (١٦٩ ـ ٢٤٦ هـ) في الردّ على ابن المقفع فيما كان ينتصر به للمجوسية على الاسلام، بل ترجم أيضاً هذا الردّ بالايطالية بعناية فائقة. وقد انتقل اليه هذا الاهتمام بمعارف الشرق من أبيه الاستاذ العلاّمة أغنازيو جويدي الذي سبقه بالتدريس في الجامعة المصرية ـ لمّا كانت أهلية ـ ونشر شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام وغيرها

وقد ألقى الاستاذ ميكائيل انجلو جويدي في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة قبل سنتين أربع محاضرات في (علم الشرق وتاريخ العمران) نوّه فيها بالأواصر العريقة في القِدَم بين الشرق والغرب، وحاول درس مسألة خطيرة من مسائل التاريخ وهي «تاريخ العمران» وهل كان أصله شرقياً أم غربياً. وبعبارة أخرى أراد الاستاذ جُويدي أن ينتهي الى نتيجة في أصل العلوم اليونانية وهل هي منتقلة من الشرق الى الغرب أم ان اليونانيين ارتجلوا طرائقهم العلمية ارتجالاً دون أن يكون لها أصل ترجع اليه في الشرق

الموضوع عويص، والمراجع في هذا الباب ضئيلة. وقد ساعد الاستاذَ

جويدي على طرْق هذا الباب معرفته بلغة اليونان واللغة اللاتينية ، ووقوفه على كثير مما كتبه العلماء في هذه المسألة . والاستاذ لم يفتْه الاطلاع على النصوص اليونانية التي تعترف للشرق بأنه واضع العلوم ، وان اليونان أخذوا عنه معارفهم ؛ لكنه ذهب الى أن النصوص الخاصة بسَفَر بعض أعلام اليونان الى الشرق لارتشاف علومه ، منتحلة . وساعده على هذا الظن كون الموجود في الايدي من آثار الشرق القديمة في العلوم لا تكفي لاعتقاد أنها الأصل المباشرة في الحكمة اليونانية . ولو أننا في مثل موقف الاستاذ جويدي لكنا نترك احتمالا واسع النطاق لضياع كثير مما لو حفظه لنا الدهر لكان مكملاً لتاريخ العلم ومبيناً بسلسلة الاطوار الطبيعية التي مرّت عليه

وعندنا أن الموضوع لا يزال قيد الدرس ، وان أدلته غير كافية لاصدار حكم قاطع فيه ، وان من المحتمل أن يكون وراء سجف الغيب شيء كثير مما اذا أزيح عنه الستار يتغيّر به وجه المسألة

واننا ندعو شباننا من تلاميذ الاستاذ جويدي وغيرهم الى درس هذا الموضوع على ضوء هذه المحاضرات الأربع ، ولنا أمل عظيم في توسيع نطاق هذا البحث حتى يأتي بفوائد مهما كانت نتائجها فانها مدينة للاستاذ جويدي بفتحه هذا الباب للباحثين من أبناء الضاد

القاهرة ٢٠ المحرم ١٣٤٩

المحاضرة الاولى

كثرت في هـذه الايام الأخيرة الاقوالُ والمجادلات في مسألة المناسبة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وفي وجوب تفاهم وتعاون يؤدّى الى إعلاءشأنهما والى توسيع نطاقهما ، واهتم بهـذا الموضوع عدد غـير يسير من المفكرين ومن المستنيرين ، ولا غرْو اذ من أعلى الاغراض التى يرمى اليها أدب المتأدبين توحيد المساعى لادراك درجـة أعلى في الحضارة والعمران الذى لايختص ببلاد دون أخرى بل تشترك فيه الانسانية كلها

وقد قرأنا في الجرائد المقالات عن هذه المسألة بل شهدنا وليمة فاخرة اقيمت في مصر احتفاء بالشعراء الثلاثة : احمد شوقى بك « أمير الشعراء » حافظ ابراهيم « شاعر النيل » خليل مطران « شاعر القطرين » . ومما ميز هذه الوليمة عن غيرها انه اشترك فيها مفكرو مصر ورجال أدبها من جهة ومن جهة أخرى ممثلو آداب الغرب وعلومه وفنونه وترأسها صاحب المعالى على الشمسى باشا وزير المعارف ولم يحضر الحاضرون لمجرد المسامرة اللطيفة أو لاستماع الاشعار المطربة أو ليصيحوا « أعِدْ أعِد » بل كان مرادهم كما قرأناه في الجرائد وكما سمعناه من كلام الخطباء وضع الاساس لتوثيق العلائق والروابط بين ثقافتين ليستا في الاصل إلا صيغتين مختلفتين لحقيقة واحدة وهى الحياة الروحية الانسانية التى لاتزال تمتاز بصفات خالدة ولو أثرت عليها عوامل شتى تختلف باختلاف الزمان والمكان

واذا تأملنا تاريخ هذه الحياة الروحية في بلاد البحر المتوسط رأينا انه ليست هذه الحركة المشار اليها الآن الا نتيجة جديدة لاميال ولاستعدادات سبق نفوذها في أدوار تاريخية اخرى مما أدى الى التقارب الدائم المتواصل بين صيغ العمران

الشرقية والغربية . ولما كان غرض هذه المحاضرات الخاص المساعدة على تكوين الثقافة العامة خصوصاً بالنسبة الى المسائل التي يهتم بها الرأي المعاصر وجدتُ في كل ذلك مادفعني الى أن أبحث عن الشروط التاريخية التي تلازم هذه الحركة الادبية وعما نجد فيها من قوى خالدة لاتزال حية عاملة من بعد أن انتجت في أدوار سابقة الصيغ الاولى للتوحيد بين العناصر الشرقية والعناصر الغربية . اذ دل التاريخ على أنه ما يميز هذه الظاهرة التاريخية الكبيرة ـ أعني الجمع بين الشرق والغرب في تقلبات الزمن ـ هو أن كل توحيد بين عناصر ترجع الى كل واحد منهما كان يسهل الطريق لتوحيد أمتن وارسخ حتى عمت الحضارة الجديدة البلاد المتمدنة كلها ولم يزل فيها الميل الى توثيق العلائق والى الجمع بين الاستعدادات الخاصة بكل واحد من القطرين ، المتصفة بأوصاف خالدة لايقدر أي جمع أو أى تقارب أن يُلغيها ، المنتجة للظواهر الهامة في تكوّن الصيغ الثقافية كما رأيتم مثالا من ذلك في نفس هذه الحركة التي أشرنا اليها الآن

والوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب انما هو « علم الشرق » بل نستطيع أن نقول ان غرض هذا العلم الاسمى ليس مقصوراً على مجرد درس اللغات أو اللهجات أو تقلبات تاريخ بعض الشعوب كلا . بل ليس ماترمي اليه بكل هذه الدروس الخاصة إلا أن نصل الى فهم تكوّن الحياة الروحية في بعض صيغها السامية . ومن الممكن أيضاً أن نقول انه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربي والتمدن الشرقي ليس علم الشرق الا باباً من أبواب تاريخ الروح الانساني وهذا من جهة نظر الشرق . وليس صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب بالذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف غرائب عادات بعض الشعوب ، بل انما هو من جمع بين الاقطاع الى درس بعض أنحاء الشرق ، وبين الوقوف على القوى الروحية الادبية الكبيرة التي أثرت على تكوين

الثقافة الانسانية . هو من تعاطى درس الحضارات القديمة ومن أمكنه أن يقدّر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلا أو في النهضة الحديثة . وفي هذه الكلمات مايدل على امكان بل وجوب التعاون فيما بين الشرقيين والمستشرقين اذ لاشك أنه قلما تتيح لمن لم ينشأ في بلاد العرب مثلا أن يجيد الاجادة كلها في معرفة هذه اللغة الشريفة وآدابها وأن يصل الى درجة التفوّق التي أدركها علماء الشرق وأئمة اللغة العربية

والحق يقال انه اذا جمع علماء الشرق بين فضلهم في البحث عن ماضيهم وعن قواعد لغاتهم وعن آثارهم الأدبية وبين الوقوف على ماسبق في العالم المتمدن من رونق العمران ومن صيغ الحياة الروحية المختلفة (خصوصاً في العالم الكلاسيكي) فمن الممكن أن نسميهم امراء المستشرقين لو أن من المألوف توزيع هذه الالقاب كما وُزعت على الشعراء المعاصرين

غير ان الاهتمام بجهتي المسألة (أعني بدرس الشرق ودرس المناسبات بينه وبين الثقافة القديمة اليونانية أو اللاتينية مثلا) من خصائص علماء الغرب إذ درس التاريخ القديم واللغات الكلاسيكيه والحضارة الهلانستية وتمدن القرون الوسطى والنهضة الحديثة هذا كله أساس تربيته العقلية وفضله المخصوص انما هو تطبيق نتائج هذه الدروس على البحث عن المناسبات والعلائق بين الشرق والغرب فيما يتعلق بالحضارة وتاريخ العمران

والخلاصة انه في التعاون بين المستشرقين والشرقيين سر النجاح في تقدم هذه العلوم ، وعلينا الآن أن نحدّد مانريد بالشرق في هذا الصدد

الشرق : عبارة جغرافية لامعنى مخصوص لها في هذه الابحاث إلا اذا وقفنا على المناسبة بينها وبين عالم الثقافة الذي يهمنا في درس تاريخ عمراننا . واذا تأملنا خريطة جغرافية وسافرنا سفراً خيالياً من أقصى الشرق الاقصى الى الغرب وجدنا في

طريقنا مراحل عديدة تستوقف أنظارنا وتُذكرنا بما حدث فيها من المظاهر الهامة فيما يتعلق بحياة الانسان الروحية والدينية والعلمية والاجتماعية . . . الخ ويكفى أن نذكر الصين مثلا أو اليابان لنتبين حقيقة كل هذا . وأما مادة علم الشرق فاذا كان مميز اختيارها الاهتمام بتكون الحياة الروحية أو الدينية أو الاجتماعية في أي مكان من الامكنة للاستفادة من هـذا كله لمعرفة كيفية عمل الروح الانسانى واختلاف مظاهره في الكرة الارضية فلا شك ان الشرق كله موضوع خليق بالدرس للوصول الى هـذه الغاية السامية . ونرى لذلك ان علماء عديدين يختصون مثلا بدرس الثقافة الصينية التى لها المناسبة البعيدة بحضارتنا أو بدرس حضارات أخرى في بلاد شتى في الشرق الاقصى كما يدرس الكثيرون تمدن أمريكا القديم مثلا أو تاريخ كل ناحية من نواحى المسكونه . . . . . وبالعكس اذا كان غرضنا الشرق بصفته عاملا من العوامل التي اشتركت في انتاج التمدن القديم وفي تكوين العقائد الدينية وفي انشاء العمران كله واذا أردنا أن نميز بين مايرجع الى تأثير عناصر شرقية والى تأثير عناصر غربية في أيامنا هذه وفي حياتنا هذه أيضاً لابد لنا من أن نتخطى في الخريطة بعض الحدود التى تحد مافي الشرق من بلاد تتصل بحضارتنا اتصالا تاماً . أو بعبارة أصح تيقنا عند تأمل الخريطة أن نفوذ البلاد الشرقية على تمدننا الحاضر ينقص تدريجاً اذا ابتعدنا من البحر المتوسط ونستطيع اذن أن نقول ان الشرق الذى نعتنى به في هـذه الدروس انما هو الشرق الادنى الذي له ارتباط بالبحر الابيض المتوسط . وليس معنى هذا انه لا أهمية لدرس الهند لتكوين عمراننا إذ أثرت الاديان والعقائد المختصة بهذه البلاد على بعض الظواهر الروحية في الغرب الا انه ليس هذا الارتباط مما يمكننا أن نشبهه بشأن الشرق الادنى لحضارتنا الحالية

واذا تأملنا ماوراء هذه الحدود من بلاد كوّنت حياة خاصة بها رأينا كثرة المواضيع التى يجب أن يجدّ في درسها صاحب علم الشرق من بلاد ايران الى سواحل

فلسطين ومن جنوب الجزيرة الى جبال آسيا الصغرى : شعوب مختلفة ، لغات عديدة ، ظواهر دينية سياسية متنوعة ، ثم تبادل النفوذ وتغالب القوى الروحية ... هذا كله وغيره مما يستلزم بذل الجهود وامعان النظر ليقف صاحب علم الشرق على أسرار التكون في هذا التساعد العجيب الذى قرّب الشعوب من الشعوب . والذى جمع بين مختلف الاميال لينتج أعز النتائج أعنى هذه الحضارة الانسانية الخاصة ببلاد البحر الابيض المتوسط التى لايرجع فضلها الى شعب دون آخر بل ينبغي أن يفتخر بها الشرق مع الغرب سوياً لاشتراكهما في تسيير الانسانية في طرق التقدم والانتعاش

وعلم الشرق هذا وهو علم من علوم الروح « Science de l'esprit » يتعمق في درس الشعوب الشرقية ولغاتها وتأريخها وحضارتها ثم يستفيد من الابحاث الجغرافية والطبيعية التى لها ارتباط بالحياة الروحية ويستفيد من الاساليب التى أوجدها علماء الفيلولوجى ويقابل بين نتائج ابحاثه الخاصة وبين ماسبق من دروس العلماء الذين ذللوا الطريق الى فهم العالم القديم الكلاسيكي وصار بذلك من أوسع العلوم موضوعاً ومن أبعدها مدى واستحق حقيقة أن يسمى كما سميناه درس تاريخ الروح الانسانى من جهة نظر الشرق لان اظهار قوى الروح واستعدادها يختلف باختلاف الزمان والمكان . ولا شك أن في الشرق ظواهر تدل على تأثير بعض القوى التى لانجد ظواهرها في أقاليم اخرى واذا درس صاحب علم الشرق خصائص هذه الظواهر وقارن بينها وبين مايختص بالغرب صار بذلك عضداً متيناً لدرس الروح الانساني وليس من يفوته مافي كل ذلك من شأن عظيم لمعرفة سبل التاريخ ولفهم أسباب الجمع بين الاستعدادات المختلفة وتصادم الاميال وتغالب الاهواء

الا أنه قد أراد البعض أن يحدّد قواعد هذا الاختلاف فكثيراً مانسمع

الناس يتكلمون عن حضارة سامية ثم عن حضارة آريه وكثيراً مانسمع أيضاً ذكر العقلية الشرقية والعقلية الغربية وما في ذلك من الصحيح الثابت وما في ذلك من الخيال . لاشك أن البابليين والاشوريين مثلا كانوا من الساميين وكان من الساميين أيضاً الفينيقيون والآراميون ثم المصريون كذلك (وهم أصحاب الحضارة التي انتشرت مع الحضارة البابلية الاشورية في البحر المتوسط كله من قبل ظهور اليونان فيه) هم من الساميين على مايذهب اليه بعض العلماء أو على الاقل من أسرة قريبة جداً من الساميين . ومن جهة اخرى فلا ريب أيضاً في أن اليونان من الهنديين الاوروبيين وان الهند والفُرس والأرمن والجرمان واللاتينيين والصقالبة من هذه الاسرة نفسها واعتماداً على ذلك أراد البعض أن يدلوا على انه فيما أحدثته العائلة السامية وفيما أحدثته العائلة الآريه (أو الهندية الاوربية) تأثير روح خاص بكل واحدة منهما ونفوذ استعداد طبيعي يمكننا أن نرجع اليه بدرس كيفية هذه الظواهر العمرانية التاريخية

والحق يقال ان هذه المسألة من أصعب المسائل التاريخية ولابد لدرسها ولفهمها من تقديم بعض الملاحظات التي تتعلق خصوصاً بتحديد معنى الجنس البشري والفرق بينه وبين العائلة اللسانية والعمران

ومما يتصف به الاختلاف في الاجناس البشرية أنه لا يتفق دائماً مع الاختلاف في اللغات وفي التمدن . نعم اذا أردنا أن نقابل من جهة عامة بين ماأنتجه من أسباب العمران الجنسُ الابيض وما انتجه الجنس الاصفر مثلا . ولكل ذلك بعض الصفات التي ربما تمكننا من اثبات بعض العلائق بين الجنس والظواهر العمرانية إذ قلما اختلطت شعوب الشرق الاقصى مع شعوب الغرب في الزمان القديم . وأما الاختلاف في صيغ الحياة الروحية في التمدن الذي يهمنا في هذا الصدد أعني تمدن البحر الابيض المتوسط فليس في الاغلب الا اختلافاً يُميّز بين ما أحدثه الهنديون

الاوروبيون وما أحدثه الساميون وهما العائلتان اللتان اشتركتا اكثر من غيرهما في انتاج تمدننا وليس من الممكن أن ننسب هذا الاختلاف الى سبب يتعلق بالجنس اذ الهنديون الاوربيون من جهة والساميون من جهة اخرى كلاهما من بين فروع الجنس الابيض الكبير. ولا يخفى عليكم أن الكثير من أصحاب علم الشعوب قبل التاريخ « Ethnographie préhistriqus » قد اتفقوا على تقسيم الجنس الابيض الكبير الى ثلاثة أقسام: أولا قسم البحر المتوسط « race méditerranéenne » ثانيا القسم الجبلي « race alpine » ثالثاً القسم الشمالي « race nordique » ولم تنتشر لغات الهنديين الاوروبيين والساميين وعمرانهم في قسم معين وخاص بكل واحد من هذه الظواهر بل امتد نفوذ العناصر الهندية الاوروبية من جهة والعناصر السامية من جهة أخرى في أقسام شتى. واذا درسنا مثلا انتشار العمرانين وعلاقتهما مع قسم البحر المتوسط المذكور وجدنا أن بعض الاقوام المنسوبة اليه كانت في دائرة النفوذ والتمدن السامي والبعض الآخر في دائرة النفوذ والتمدن الهندي الاوروبي

والخلاصة انه ليس التقسيم الى هنديين أوروبيين والى ساميين تقسيما ينسب الى شيء يتعلق بالجنس، وانما هو تقسيم من جهة نظر اللغات ومن جهة نظر التمدن في داخل جنس واحد. واذا سمينا هذين القسمين عائلتين أصبنا اكثر مما اذا حافظنا على تسمية جنسين. والحق يقال انه في اصطلاح المؤرخين وأصحاب الفيلولوجي لانجد الآن الا هذه التسمية الاخيرة

وعلى كل حال فلاشك انه فيما انتج الهنديون الاوربيون من جهة والساميون من جهة اخرى من اللغات أو من صيغ العمران المختلفة فرق أراد أصحاب هذا العلم أن يعينوه وأن يقفوا على أسبابه وقال البعض منهم ان للساميين مثلا أوصاف كذا وكذا وانه لاتوجد فيهم أوصاف كذا وكذا وبالغوا في ذلك وأرادوا مثلا أن يدلوا على أنه ينقصهم الاستعداد لاعمال الروح النظرية كالفن مثلاً وما

اختصوا به انما هو الاستعداد العملي « pratique » الى غير ذلك مما لانصدقه لاسباب يضيق الوقت عن ايرادها . ومهما يكن من شيء فلا ريب ان الفرق بين هاتين العائلتين محسوس نراه في تاريخ العمران خصوصاً فيما يتعلق بالدين مثلا أو بظواهر أخرى ولابد من درس أسبابه بصرف النظر عن الجنس

واذا كان أصل تفرع العائلات المختلفة في الزمان القديم افتراق بعض القبائل وانفرادها حتى كوّنت لهجة جديدة واتخذت صوراً جديدة للحياة الاجتماعية أو السياسية أو الدينية إلى غير ذلك فليس سبب الابتداء في الفرق الاكيفية هذه العناصر الاولى أعني خصوصاً استعداد هذه القبائل وبعض الاشخاص وأميالهم وهذا هو العامل الاول أما العامل الثاني وهو من أهم العوامل فهو المركز الجغرافي وخصوصاً كيفية الحياة التي انتجها المركز الجغرافي المذكور وله شأن كبير في تكوين صيغ الحضارات المختلفة ومما هو مشهور معروف ما أثبت التاريخ من تأثير الحياة البدوية على تكوّن عقلية الشعوب وحضارتها وليست الحياة البدوية الا نتيجة المركز الجغرافي الذي يدفع القبائل الى الانتقال من محل الى محل سعياً وراء العيش والى الحروب والى الغزوات وفي كل هذا بيان بعض الاوصاف التي نجدها في الشعوب السامية مثلا وفي الزراعة بالعكس وفي حياة المدن والقرى شروط أخرى لها نفوذ في انتاج التمدن وهذا مما دل عليه أيضاً أحسن دلالة كاتب عربي مشهور أعني به ابن خلدون في مقدمته المعروفة . ثم ان للمناخ أيضاً تأثيراً كبيراً . إلا أنه يضيق الوقت عن تطبيق هذه المبادىء التي أشرنا اليها على تاريخ الهنديين الاوروبيين والساميين . وحسبنا أن نشير الى هذا الفرق وبعض أسبابه وألا ننسى أيضاً ماحدث في التاريخ من اختلاط الشعوب الذي كان سبباً لمرور بعض الصيغ العمرانية من شعب الى شعب . ولو أردنا مثلا أن ندل على كون الحضارة السامية اعتماداً على مجرد التمدن البابلي الاشوري لكان ذلك سبباً لبعض الاغلاط

في تقدير العقلية السامية إذ أخذ البابليون والاشوريون عناصر عديدة من تمدن آخر وهو التمدن السُمَرى وليس السمريون من الساميين كما هو معروف ، وأمثلة ذلك في التاريخ عديدة جداً. ومما يستنتج من ذلك أن لانتشار أسباب التمدن من شعب الى شعب شأناً كبيراً في إحداث عقلية الاقوام الهنديين الاوروبيين أو الساميين الغربيين أو الشرقيين . وان مايظنه البعض نتيجة من نتائج العقلية الهندية الاوروبية أو السامية مثلا قد يكون في الحقيقة ليس الا مجرد عنصر أجنبي دخل في التمدن الهندي الاوروبي أو السامي في تقلبات التاريخ

ولما أشرنا الى أهمية المركز الجغرافي عموماً لابد أيضاً من الاشارة الى شيء مهم وهو أن الشروط الجغرافية العامة التي نجدها في الشرق الادنى كله وما انتجت فيه من كيفية الحياة تشترك فيها شعوب شتى . هذا كله سبب التشابه بين أميال بعض سكان هذا الاقليم ولو كانت من أصل مختلف وهذا المبدأ الذي يعتمد عليه هو الذي يمكننا أن نثبته من خصائص العقلية الشرقية والفرق بينها وبين العقلية الغربية مما لاسبيل الى تعيينه وتحديده

هذا من المبادىء العامة مما لم يك بد من تقديمه قبل أن نتأمل شيئاً من كيفية التعاون بين الشرق والغرب في تاريخ التمدن وهذا مما يكون موضوع محاضرات تالية ان شاء الله

المحاضرة الثانية

قد درسنا في المحاضرة الأولى كون علم الشرق ، وأشرنا الى بعض أغراضه لها شأن كبير فيما يتعلق بمسألة تعاون الشرق والغرب في تاريخ العمران ، وقلنا خصوصاً إنه ليس علم الشرق بمعناه الأوسع والأعلى مجرّدَ درس بعض اللغات الغريبة ـ قديمة كانت أو حديثة ـ أو مجرد وصف عادات شعوب تسكن في بلاد بعيدة ، بل هو درس تكوّن التمدن والعمران من جهة نظر الشرق ، وتاريخ عمل الروح الانساني في انتاج الحضارات التي تهمنا أكثر من غيرها . اذ ليست الحضارات الحالية ، وما سبقها من حضارات قديمة في بلاد البحر المتوسط ، الا نتيجة عناصر شرقية وعناصر غربية اختلف نفوذها المتبادل باختلاف الأماكن والأزمنة وباختلاف الظروف . ولا سبيل الى فهم هذا التركيب العجيب وأدواره وصيغه الاّ اذا عمق أصحاب التاريخ أنظارهم في كل وجه من وجوه المسألة ، أو بعبارة أدقّ اذا رموا في أبحاثهم إلى تقدير كل عنصر من العناصر التي اشتركت في انتاج هذه الظواهر التاريخية . ومما يترتب على ذلك أنه لا بدّ لهذا الغرض من توزيع العمل ، لسعة المواضيع ولعدم امكان الاحاطة بها كلها . فيختص علماء يدرس الشرق دون الغرب أو يدرس بعض أنحاء الشرق دون أخرى ، وأصحاب الشرق وأصحاب الغرب يتساعدون بتبادل نتائج مباحثهم في سبيل الغرض الأعلى ـ وهو معرفة تكوّن العقول ـ وفي تكوين الثقافة العامة والأميال الأدبية ؛ اذ من أشدّ دواعي اعلاء شأن الحضارة ، ومن أنفذ بواعث توثيق العلائق بين وجوه

الحضارة المختلفة الوقوف على ما سلف من رونقها وتمييز ما يرجع فضله الى تأثير الشرق وما يرجع فضله الى تأثير الغرب . وهذا كله مما يجب ألاّ نصرف النظر عنه في التعليم في المدارس العليا وفي المدارس الثانوية وفي انشاء الثقافة العامة . وذلك ما دفعني الى اختيار مثل هـذا الموضوع لمحاضراتي العامة

غير أننا اقتصرنا في المحاضرة الاولى ـ وهذا لضيق الوقت ـ على الاشارة الى المسألة وتحديدها ، وعلى درس المباديء التي يعتمد عليها تأمل علم الشرق من حيث صفاته هذه ، ولم يسعنا أن ندل بالحقائق وبالحوادث التاريخية على صحة ما ذهبنا اليه من النظريات في هذا الموضوع . وأما هذه المحاضرات الباقية فلا ترمي الاّ الى شيء من درس الحضارة القديمة في بلاد البحر المتوسط في أهم أدوارها لنبيّن كيفية هذا التعاون بين صيغها المختلفة المنسوبة الى الشرق أو الى الغرب ، وليرى الطلبة خصوصاً ما نحتاج اليه من سعة المعارف ومن أنواع الدروس ومن المساعدة مع أصحاب فنون أخرى لنحيط بهذا التكون ولنصل الى تقدير هذا التعاون الذي يمكننا أن نسميه **فعل صة حياة الروح الانساني** في أعلى صيغ تكوينها

اذا قابلنا بين حالة معارفنا الحاضرة فيما يتعلق بحياة الشرق القديم وما كانت عليه قبل مائة سنة ، كان هذا سبب تعجب واستغراب كثير : مزّق العلم الحُجبَ التي كانت تستر أسرار حيـاة أجدادكم القدماء وأجداد شعوب أخرى ، وصار الغامض واضحاً أمام عيون الناس ، وهذا كله لتقدُّم علم الشرق . وفضله الأكبر في هذا القرن الأخير انما يرجع الى قراءة الـكتابة المصرية والكتابة الاشورية البابلية التي مكّنتنا من الاستفادة من أخبار المصادر الأصلية لدرس تاريخ الشرق القديم مما فتح الباب للتعمق في هذه المواضيع ولمعرفة الحياة الروحية في درس أهم أدوارها . ولا يخفى عليكم أنه من قبل قراءة النقوش الهيروغليفية والمسمارية لم يكن لنا من مصادر معرفة مصر وبابل الاّ ما رواه بعض الكتاب اليونانيين (والا كثر

منه أضغاث أحلام) أو بعض الكتاب الشرقيين الذين ألفوا كتبهم في اللغة اليونانية في دور العمران الهلانستي « Hellénistlus » وأخبرونا عن بابل وعن مصر وأعني خصوصاً باروز Berossus ومَنِثان Manèthan

ثم اشترك علم الآثار في هذا العمل ودرس بقايا هاتين الحضارتين في بلادهما ـ أعني في وادي النيل وفي العراق وفارس وفي البلاد التي انتشر فيها هذا العمران القديم ـ وفتش أصحاب هذا العلم التلول والآكام ودخلوا في بطون الجبال وفي الأهرام وا كتشفوا بقايا المباني والقبور والمعابد وأنقاض القصور وما كان عليها من النقوش والصور

ثم وجدوا في بلاد بعيدة وفي طبقات الارض المختلفة (التي أمكنهم أن يُعينوا دور التاريخ الذي ترجع اليه) أشياء متنوعة من آلات أو حلى أو تماثيل صغيرة وهلم جرًا مما كان ينتقل من الشرق الى الغرب عند انتشار العمران الشرقي ومن توحيد مساعي علماء الفيلولوجي والتاريخ وأصحاب علم الآثار هذا نتيجة عجيبة لما يتعلق بتاريخ العمران ، إذ عرفنا بفضل مباحثهم الأركان الثقافية التي اعتمد عليها التمدن في بلاد البحر المتوسط من قبل ظهور اليونان فيه ، وأمكننا من بعد ذلك أن نؤلف الجزء الأول من تاريخ العمران الحاضر وله خصائص وأوصاف مهمة لفهم تكوّن الأدوار التالية حتى الدور الحديث المعاصر مما لابد من الاشارة اليه ولو بكلمات وجيزة

قبل كل شيء . . كنا من بعد هذه الدروس وهذه الا كتشافات على يقين من أنه في الألف الرابع قبل الميلاد تقريباً نشأ في الشرق تمدّن أعلى بكثير من التمدن الذي نراه في الغرب في هذا الزمان عينه ، إذ نجد في الشرق استعمال المعادن ، والكتابة ، والزراعة ، والملاحة ، وهلم جرا . وحياةً اجتماعية سياسية أدبية دينية اقتصادية . وفي هذا الزمان كانت لاتزال شعوب الغرب في آخر الدور الذي

يقال له الدور الحجرى ، ولم تصل الى درجة أعلى الاّ بانتشار هذا التمدن الشرقي، مما ينتج أنه ليس درس الشرق القديم الاّ درس صيغ الحياة الروحية الأولى في بلادنا الغربية . ويقول لنا التاريخ والفيلولوجى وعلم الآثار ان الفضل في إنشاء هذا التمدن القديم إنما يرجع إلى شعبين مشهورين : الشعب البابلى الاشورى ، والشعب المصري . اختلف نفوذهما باختلاف الزمان والمكان ، وانتشر في الشرق الأدنى وفي سواحل البحر المذكور

هذه هى النتيجة الأولى وهى أساس دروسنا

ثم أثبتنا أيضاً أن الشعوب الاخرى التى نجدها في الشرق - وهى على درجة في التمدن أعلى مما كانت عليه شعوب الغرب - كلها من قبل الحضارة اليونانية ، بل كانت تحت نفوذ هاتين الحضارتين ، ولم تصل بالاغلب الى تقدم في العمران والى انشاء عقلية خاصة بها الاّ اعتماداً على ماقبلته في دورها القديم من مصر ومن بابل والاّ فيما بين الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد

ثم اختلف العلماء في تقدير شأن الحضارة المصرية والحضارة البابلية الاشورية وأثرهما في تكوين العمران وفي سير التمدن في الشرق وفي الغرب ، ولو اتفقوا على صحة وجود هذا النفوذ على وجه عام . ومنهم من ذهب الى أن لبابل واشور ومصر جميعاً فضل انشاء العمران في البحر المتوسط وفي الشرق الأدنى ، وأنه ليس التمدن القديم في أدواره التالية - ولو في العهد الروماني واليوناني - الاّ تكوين عناصر كانت كلها موجودة في هاتين الحضارتين والاّ تكملتها والا تتممها ، ولا ابتدع اليونان أو الرومان بعقليتهم الخاصة الا شيئاً يسيراً . « Ex orient Lux - النور من الشرق » ، هذا شعارهم

ومنهم من أراد أن ينسب الى بابل وأشور الفضل الاكبر والتأثير الأنفذ ، وأعلوا شأن الحضارة العراقية دون المصرية ، وقالوا ان فيها أصل التشريعات

كلها والأديان جميعاً وأصل العلوم والفنون وأصل الثقافة والآداب والشعر والغناء. وقيل لهذا المذهب « المذهب البابلي المطلق » ويسمى بالفرنسية Panbabylonisme وأرادوا أن يثبتوا العلاقة بين أشعار هوميروس والاناشيد البابلية الحماسية التي تحدثنا عن قصة جلجاميس أو العلاقة بين الاناجيل والنصوص البابلية الدينية. ومن افراط هذا المذهب أيضاً ماذهبوا اليه من المناسبة بين التوراة والكتب البابلية الاشورية، وبين الدين اليهودي وبين الأديان الشرقية القديمة، ولا شك أنكم تتذكرون ماجرى في ألمانيا من المجادلات والمناقشات في المسألة المشهورة Babel und Bibel. (١)

ومن العلماء أيضاً من بالغ في تقدير شأن مصر. وأما نحن فنسلم بأهمية الحضارات الشرقية القديمة التسليم كله مما يدل عليه علم الشرق وما نقرأه الآن في النصوص والنقوش المصرية والبابلية والاشورية، ومانراه من انتشار الفنون والصناعات الشرقية في بلاد البحر المتوسط. ولكننا من جهة أخرى نرى أن أول سبب للتقدم الكبير في العمران ـ هذا التقدم الذي وضع أساساً لايزال يعتمد عليه التمدن الحاضر ـ إنما كان الجمع بين هذه العناصر الشرقية وبين ما أضافت اليها وأحدثته وابتدعته العقلية اليونانية التي سيرت الفكرة الانسانية على طرق جديدة ولو اعتماداً على ماقبلته من الشرق من أسباب العمران ومن صيغ الحياة الروحية. وهذا سنشير اليه من جديد عند درس أوائل الحضارة اليونانية في المحاضرة التالية ان شاء الله

وأما الشعوب الشرقية الاخرى فقد أشرنا اليها فيما قبل وقلنا انها تأثرت بهاتين الحضارتين في دور التمدن الأول، أعني منذ ابتداء العمران الشرقي إلى مابين الالف الثاني والالف الأول قبل الميلاد، إلا أنه لاشك أيضاً أنها من بعد ماقبلت

(١) مسألة بابل والتوراة، وهي تدور على أن في التوراة تشريعاً مقتبساً من تشريع حمورابي

أسباب التمدن الأولى من مصر أو من بابل أنضجت في حياتها الخاصة ثمرات استعدادهم ولكننا لانرى تأثير هذه العوامل الشرقية العديدة في تكوين العمران في البحر الأبيض المتوسط وفي عمراننا الحالى الا من بعد أن عمّ التمدن اليوناني المسكونة كلها لسبب فتوح اسكندر ذى القرنين ولسياسة من جاء من بعده من خلفائه الذين استولوا على الشرق واختلط في بلادهم الشعب اليوناني والثقافة اليونانية مع الشعوب الشرقية وثقافتها القديمة وأميالها المختلفة الجديدة ، وصار هذا سبباً لتعاون جديد بين الشرق والغرب في صفة أعلى وعلى الأساس الذى وضعه ذلك العمران العام الذى كان نفسه نتيجة تعاون أيضاً بين الشرق والغرب ، أعنى العمران اليوناني القديم قبل زمان اسكندر ذى القرنين ، وهذا كله مما سنطيل الكلام عليه في المحاضرة التالية ان شاء الله

واذا أردنا أن نعدّدها فعلينا أن نلقي نظرة على الخريطة الجغرافية لنتبين اختلاف أجناسها وتنوّع خصائصها ومركزها في تاريخ العمران . واذا ابتدأنا أن نتأمل الخريطة من الشمال رأينا مثلاً في آسيا الصغرى شعوباً عديدة : منها هندية أوروبية ، ومنها سامية ، ومنها من جنس آخر ، ثم في سوريا وفلسطين نجد شعوباً سامية مهمة جداً انتشرت في الشرق كله وأحدثت فيه حضارات شتى : منها الآراميون ، ولا يخفى عليكم شأنهم في مملكة بابل وتقلبات تاريخهم وحروبهم . ومنها اليهود ولو أردنا أن نتكلم عنهم لطال بنا الكلام لاهميتهم لما يتعلق بتاريخ الأديان . ثم الفنيقيون والفلسطينيون . ثم في الشمال العرب . وغير خافٍ ما يقال عن تأثيرهم ولو في دور تاريخ العمران القديم ، اذ من العلماء من يذهب الى أن بعض الملوك في بابل وبلاد أخرى من العرب القدماء . ثم نجد في شرق العراق أمماً أخرى هندية أوروبية كالايرانيين الذين لهم شأن كبير في التاريخ السياسي وفي التاريخ العمراني ، الا أننا ـ كما قلت ـ لا نرى تأثير هذه الشعوب دون المصريين

والبابليين الاشوريين (ومن يمكن أن كان بينهم من العرب أو الشعوب الأخرى) الا من بعد تكون العمران اليوناني الذي جمع لأول مرّة بين العناصر الشرقية القديمة وثمرات استعداد اليونان وعقليتهم والذي كان أساساً لكل عمران تلاه في بلاد البحر المتوسط

لأجل ذلك لانريد أن نطيل الكلام على هذه الشعوب الاخرى كلها غير أنه لا يسعنا في هذا الصدد ـ أعني في درس تكون التمدن وما ساعد على إنتاجه من عناصر شرقية وعناصر غربية وفي درس كيفية اختلاط هذه العناصر ـ الا أن نذكر شعبين من بين هذه الشعوب لهما وظيفة خاصة في انتشار التمدن الشرقي القديم في البحر المتوسط وبين اليونان ومن سبقهم في سلطان البحر الأرخبيلي ، أعني بهذين الشعبين الحثّيين والفينيقيين

ـ أما الحثّيون فكانوا يسكنون منذ زمان قديم في آسيا الصغرى حيث أسسوا مملكة كبيرة ثم امتد نفوذهم الى سورية وأدركوا درجة عالية فى الرفاهية والقدرة خصوصاً فيما بين الألف الثالث والالف الثاني قبل الميلاد ، واحتلوا فى زمان أخناتون الفرعون المصري بعض أنحاء سوريا مما كان واقعاً تحت سلطان المصريين . ولا شك أنكم تعرفون ما نجد فى آثار الفراعنة من ذكر الحروب بين الحثّيين والمصريين ومن صور تتعلق بذلك ، وهذا خصوصاً فى معبد الأقصُر الكبير وفى الكَرْنَك وفى مدينة هابو ومعبد رمسيس الثاني فى بلدة القرنة الذي يقال له « Ramessum » وقاتلَ الحثّيون أشور وغلبوها مراراً حتى دمّرت آشور مملكتهم فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . اننا لا نريد أن نتكلم اليوم عن تقلبات تاريخهم ، بل غرضنا مجرد الاشارة الى ما لهذا الشعب من الشأن خصوصاً فيما يتعلق بانتشار العمران الشرقي البابلي والمصري فى ناحية الغرب ، وهذا المركز الجغرافي الذي كان من جهة سبباً لتأثير بابل ومصر على الحثّيين ومن جهة أخرى

الداعي الى مناسبات متينة بينهم وبين شعوب أخرى كانت تسكن فى جزائر الأرخبيل وخصوصاً الكريديون واليونان

ولننظر الى الخريطة لنتبين هذا ، اذ ليست البلاد الحثّية فى الزمان القديم الاّ طريق الاتصال بين العراق وسواحل آسيا الصغرى وجزائرها حيث الأذواق ملائمة لبيع البضائع والمصنوعات الشرقية الآتية من بابل وحيث التقاء الامم واختلاف طبقات شتى من ملاّحين أو تجار أو جند مما كان يسهل كثيراً انتشار الثقافة الشرقية . واذا تأمل الانسان فى الخريطة كيفية هذه البلاد رأى أن بين أرض الحثيين وبابل بلادا مخصبة تسهل طرق المواصلات ، وهي جزء من هذه الاقاليم التى يقال لها فى اصطلاح بعض المؤرخين المعاصرين « الهلال المخصب » لصورة البلاد المخصبة التى تمتد من بابل الى فلسطين وتحيط بها الصحراء . وبلاد الحثّيين قريبة من الجزء الشمالي الغربي خصوصاً لهذا الهلال ثم تجاور البلاد الحثّية سورية وفلسطين أعني بلاداً كان فيها التأثير المصري شديداً جداً

والخلاصة ان في بلاد الحثيّين ارتباطا بالعمرانين الكبيرين في الشرق القديم من جهة ومن جهة أخرى أسباب الاختلاط والمناسبات بتلك الشعوب التى لم يبتدىء تأثيرها على تاريخ العمران الا في الدور التالى والتي قبلت على ما نظن بواسطة الحثيين بعض عناصر العمران القديم . واذا قابلنا بين ماينتجه المركز الجغرافي والحقيقة التي أثبتها التقدم في درس هذه الشعوب رأينا نفوذ التمدن العراقي ظاهراً في الفنون وفي الملابس . والاسلحة والحلى وفي أشياء أخرى من أسباب الحياة ثم استعمل الحثيون من بين الكتابات المختلفة التي نراها في نصوصهم كتابة مسمارية ، وهذا أبين دليل على نفوذ الثقافة البابلية على حياة الحثيين ، لا على الحياة المادية فقط ولكن على الحياة الروحية أيضاً .

وأما العلائق بين الحثّيين وشعوب البحر الارخبيلى عن اليونان والكريديين

فالا كتشافات الاثرية والتقدم في معرفة اللغات المستعملة في النقوش الخطية سمحت لنا أن نقف على شيء مهم جداً ولو كان ذلك مما لا يوافق عليه العلماء جميعا .

وأما الا كتشافات الاثرية فلا يخفى ماوُجد في غرب آسيا الصغرى الشمالى في مدينة Troia من بقايا أدوار عمرانية شتى وفي بعضها علاقة بما نجد في البلاد الحثية . والأرجح ان هـذه المدينة كانت في دائرة التأثير الحثي « و Troia » وتذكرنا الحروب بينها وبين اليونان القدماء ممـا وصفه هوميروس في أشعاره المشهورة وتذكرنا كل العلائق بين آسيا الصغرى والـكريديين واليونان مما أشارت اليه أيضاً الا كتشافات الاثرية في بلاد أخرى . ولا يقف الامر عند ذاك الحد إذا تيح لاصحاب الفيلولوجى أن يقرأوا بعض النقوش الحثية والبعض منها مكتوب بلغة من اللغات الهندية الاوروبية (وجميع اللغات المستعملة في هذه النقوش ثماني لغات) وفي هذه النقوش ذكر بلد يشبه اسمه اسم (آخيا) ثم فيها ذكر بعض الملوك أو الامراء تشبه أسماؤهم أسماء يونانية مشهورة وخصوصاً أسماء نجد ذكرها في أشعار هوميروس . وأراد البعض أن يستنتج من ذلك أنه بين الحثيين وبين اليونان في ذلك الزمان علاقة متينة وأن لتـاريخ العمران الشرقي واختلاطه باليوناني ارتباطاً بتقلبات الحوادث في آسيا الصغرى حيث قاتل اليونان الحثيين الذين كانوا من حملة لواء الثقافة الشرقية ، وفي المقاتلة والحروب أحسن دلالة على انه بين الحثيين وبعض القبائل اليونانية الاصل المقيمة في آسيا الصغرى من زمان قديم علاقة متينة

ومهما يكن من شيء فلا نشك في الحالة العلمية الحاضرة وان للحثيين وظيفة مهمة في انتشار العمران الشرقي القديم من الشرق الى ناحية الغرب

وأما الحثيون فكانوا من ناشرى العمران الشرقي من جهة البر ، ولقوم آخرين مشهورين وظيفة انتشار هذا التمدن الشرقي من جهة البحر ، أعنى بهم الفنيقيين . واذا أمكننا أن نستشهد على شأن الحثيين بقول الشاعر :

« ملأنا البر حتى ضاق عنّا »

استشهدنا على شأن الفنيقيين بعجز البيت عينه وهو :

« كذاك البحر نملؤه سفينا »

والفنيقيون من الشعوب السامية الكنعانية لغتهم تشبه كثيراً اللغة العربية حتى ليمكننا أن نقول انه ليست هاتان اللغتان الاّ لهجتين للسان واحد . ولا نعرف زمان هجرتهم الى سورية وفلسطين من مكان اقامتهم الاصلي (وهذا مما نجهله أيضاً) والأرجح انهم وصلوا الى تلك الانحاء في الالف الخامس والرابع قبل الميلاد . وبتقدّم علم الشرق بالوقوف على مايخبرنا عنه في هذه الشعوب المصريون والبابليون واليونانيون وعلى ماظهر من بقايا تمدين الفنيقيين في بلاد شتى من بعد الحفريات الحديثة ، بهذا كله أمكننا أن نتبين شأن الفنيقيين في العالم القديم وما ساعدوا به على انتشار التمدن ، وقرأنا نقوشهم التي وجدت في أنحاء عديدة من بحر الأبيض المتوسط وكنا على يقين من أن الفنيقيين أدركوا درجة عالية في العمران منذ زمان قديم إذ وجدت في هذه السنوات الأخيرة في جبيل (Byblos) قريباً من بيروت قبور ومصنوعات وتماثيل وغير ذلك من نتائج الفن والصناعة التي يرجع عهدها الى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد على الاقل ، ورأينا أن الفنيقيين في صناعاتهم وفي حياتهم المادية والعمرانية جمعوا بين عناصر مصرية وعناصر بابلية اشورية . ولهم مصنوعات عجيبة خاصة بهم استغرب لها ساكنو سواحل البحر الأبيض ، ثم دفعهم ميلهم واحتياجهم الى بيع البضائع الى قطر البحر بسفنهم والى التجارة في بلاد بعيدة مما كان سبباً لانشاء مستعمرات شتى في البحر المتوسط كله لم تكن في الاصل الاّ مراكز تجارية . والكل يعرف قرطاجنة Carthago ورونقها حتى دمرها الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد

وأما تاريخ الفنيقيين كله فله ارتباط متين بتاريخ الملاحة في البحر المتوسط

وقد أثبتت الدروس الاخيرة شأن الملاحة المصرية والملاحة الكريتية في الزمان الأقدم ؛ الا أن هذه الملاحة المصرية قد انحطت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد . وكان هذا سبب توسع في الملاحة الفنيقية حتى صار الفنيقيون أهم شعب ملاحي وتجاري الى وقت ظهور القوة البحرية اليونانية في البحر الارخبيلي

وما نقرأه في أشعار هوميروس وفي مصادر يونانية أخرى من المناسبات بالفنيقيين تلميح واضح إلى هذا الدور الذي اشتهر فيه الفنيقيون ونشروا في الغرب نتائج العمران الشرقي . وعلم الآثار دلّ ـ بالمباحث والحفريات ـ على وجود هذه المصنوعات في بلاد شتى ، ولا شك أنه لم يقتصر ما أتى به الفنيقيون على أشياء مادية فقط بل أتوا أيضاً بأسباب التقدم في الحياة الروحية كما يدل على ذلك انتشار حروف الهجاء

أصل الكتابة لاشك في الشرق حيث نجد كتابات عديدة منها المصرية والبابلية وأما الكتابة التي استعملها اليونان والرومان ولا نزال نستعملها حتى الآن واستعملتها أيضاً شعوب أخرى شرقية فأصلها الكتابة المصرية لأنه أتيح لبعض الساميين الغربيين المقيمين في بلاد مجاورة لمصر (كطور سينا) أن يتقدموا كثيراً في استعمال الكتابة اذ اعتمدوا على العلامات المصرية ولكنهم (وهذا فضل كبير) عينوا لكل صوت علامة واحدة ، وهذا أساس الحروف التي اكملها الفنيقيون والآراميون خصوصاً ونشروها في الشرق وفي الغرب ، وأما اليونان فانهم لما أخذوا هذه الحروف عن الفنيقيين أدخلوا عليها تتمة مهمة إذ طبقوا الحروف الدالة على أصوات سامية ليست موجودة في اللغة اليونانية على التعبير عن الحركات ثم انتشرت الابجدية اليونانية في بلاد روما وايطاليا . وهذا السبب هو الذي من أجله تجد الحركات في اللغات الغربية ولا تجدها في اكثر اللغات الشرقية . الا ماجاء من بعد من علامات الحركات المستعملة خصوصاً للقراءة المضبوطة في الكتب الدينية . وهذا كاف

الدلالة على شأن الفنيقيين فى انتشار التمدن الشرقي فى الغرب

وخلاصة ماقلنا اليوم ان تاريخ الحضارة الحالية يبتدىء فى الشرق وخصوصاً فى بابل وفى مصر ، وان هـذا العمران انتشر تدريجياً فى الغرب بفضل الملاحة المصرية وبفضل الحروب والغزوات وخصوصاً بفضل شعبين من الامم الشرقية : الحثيين والفنيقيين ، وان أمماً شرقية أخرى كانت تحت تأثير مصر وبابل مازالت تكوّن من زمان بعيد عناصر عمرانية جديدة لها شأن كبير فى أدوار التمدن التالية

هذا الركن الأول فى تاريخ تمدننا . وأما الركن الثاني فهو ظهور اليونان على مسرح التاريخ من بعد أن تأثروا بمن سبقهم فى التسلط على الأرخبيل وبالامم الشرقية . وسندرس فى المحاضرة التالية ان شاء الله المناسبات بين اليونان والشرقيين ونرى فى ذلك شدة اختلاف العلماء فى المسائل كلها مما سنشير اليه غير ناسين ماقال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

المحاضرة الثالثة

لقد أشرنا في المحاضرة السابقة الى ماسمّيناه الركن الأول في تاريخ التمدن القديم في بلاد البحر المتوسط . وخلاصة ماقلنا انه ليس تاريخ عمران هذه البلاد من قبل ظهور اليونان على مسرح التاريخ الا نتيجة ما أحدثته الامم الشرقية الكبيرة أعني خصوصاً المصريين والبابليين الاشوريين من أسباب التمدن وما وصلوا اليه من التقدم في الصنائع وفي العلوم وفي الآداب ومن رونق الفنون

وقلنا أيضاً ان أمماً شرقية أخرى ـ وكانت في الاغلب تحت نفوذ المصريين والبابليين الاشوريين ـ كوّنت حياة أدبية دينية خاصة بها مما أثر أيضاً فيما بعد « وخصوصاً من بعد فتوح اسكندر ذي القرنين » على الحياة الروحية في بلاد المسكونه . ومن هذه الامم اليهود والفرس كما سنفصل هذا كله في المحاضرات التالية. ثم خصصنا ذكراً لأمتين من بين هذه الامم الشرقية اذ لهما وظيفة خاصة في نشر التمدن الشرقي المصري أو البابلي الاشوري في ناحية الغرب وهما الحثيون والفنيقيون

والآن علينا من بعد الاشارة الى العنصر الشرقي في تكوين الحضارة القديمة والى شأنه ، فضله أن نتأمل ذلك الحادث التاريخي الكبير الذي كان سبب انقلاب عظيم في تاريخ الروح الانساني وعيّن سير العمران وجمع بين أميال شتى واستعدادات مختلفة حتى وضع الاساس الذي يعتمد عليه التمدن كله في أدواره التالية أعني بذلك دخول اليونان في التاريخ من بعد مهاجرتهم من محل اقامتهم الاصلي الى شبه جزيرة البلقان . وليس من الممكن أن نفهم كنه تكون حياة الروح الانساني من بعد اليونان الا اذا أثبتنا كيفية المناسبة بين الحياة الشرقية وخصائصها

و بين الحياة اليونانية الجديدة ثم الرومانية . وفى تعاون هذين العنصرين العجيب وفى توحيدهما وفى توحيد الروح الذى يختص بكل واحد منهما وفى جدالهما وتغالبهما خلاصة تاريخ العمران . ولا سبيل الى كشف أسرار الصيغ التاريخية التي اتخذتها حياة الانسان الروحية فى اختلاف ظواهرها الا بدرس هذا النفوذ المتبادل

وقبل أن نشرع في درس كيفية اشتراك اليونان في انتاج العمران وتحديد المناسبة بين ما أحدثه اليونان وما سبق ذلك من تقدم العلوم أو الفنون والآداب فى البلاد الشرقية علينا أن نبحث عن مسألة مهمة وهى هذه « هل كان اليونان أول من أدخل روحاً جديداً فى تأمل الحقائق ، وفى نهج طرق الفكر ، وفى تمثيل الطبيعة فى الآثار الفنية ؟ أم سبقهم فى كل هذا شعب آخر لم يمكنه فيما بعد أن يصل الى ماوصلت اليه الشعوب اليونانية وهذا لاسباب تاريخية شتى ؟

هذا سؤال لابد من الرد عليه لشأنه في تقدير الظواهر العمرانية القديمة الا أنه لاسبيل الى أن نرد بكل دقة إذ ليس فى أيدينا من المصادر مايمكننا من الوقوف على الحياة الروحية التي كونها قوم مشهور أشرت اليه فى المحاضرة السابقة وهو الشعب الكريتي ، وما أطلت الكلام عليه حتى الآن لأني أردت أن اشير خصوصاً إلى مايحتمل أن يكون صحيحاً من وظيفته فى تكوين العناصر الشرقية لأول مرة فى صيغ جديدة ، وأن أشير أيضاً لهذه المناسبة الى ماأثبته البعض من نفوذه فى تقدم الشعب الاغريقى ومن توارث استعداده على سبيل الاختلاط أو بواسطة التقليد. فلا شك أن هذا الشعب كان أول من كوّن في ناحية الغرب تمدناً كبيراً له خصائص معينة ولو اعتمد على العناصر الشرقية المتسلطة إذ ذاك في بلاد الأرخبيل ولا شك أيضاً أن هذا الشعب نفسه قد سبق اليونان في إحداث عمران باهر في هذه الانحاء وليس في جزيرة كريت فقط اذ انتشر هذا التمدن في شبه جزيرة البلقان وفي جزائر الارخبيل وهذا خصوصاً من بعد انحلال كريت . وكل منا

سمع بلا ريب ذكر التمدن الميكاني « Mycénéen » نسبة الى المدينة المشهورة « ميسين » ومن المشهور كفاية أن هوميروس الشاعر اليوناني الكبير قد أشار في وصفه الحياة اليونانية القديمة الى هذا الدور خصوصاً الذي انتشر فيه النفوذ الكريتي في بلاد اليونان حتى في Troia البعيدة الموجودة في سواحل آسيا الصغرى الشمالية

فليس اذن من الغريب أن يُلقى هذا السؤال : ألم يشترك الشعب الكريتي في هذا الانقلاب في العمران الذي أشرنا اليه فيما قبل ؟ ألم يجد اليونان في الاختلاط بالكريتيين في أوائل مهاجرتهم ، وفيما سبق اليه الكريتيون من انتاج صيغ التمدن ولو تحت تأثير الحضارة الشرقية . ألم يجد اليونان في كل ذلك دافعاً الى احداث ما أحدثوه من أسباب العمران حتى صار هذا أساساً لتكوّن العمران القديم كله ؟

وهذا نوع من المسائل المهمة يميل اليه الباحثون في هذه المواضيع الذين أحبوا أن يتعمقوا فيه لو أنهم وجدوا السبيل الى الوقوف على تفاصيل الحياة الروحية الكريتية الا أنه مع الأسف لم يُتح لنا حتى الآن أن نقرأ الكتابة الكريتية

وجدت في قصور Knossos و Prestos ألوف من الألواح الخزفية المنقوش عليها بالخط الكريتي الذي لا يزال سراً مكتوماً بالرغم من المجهودات التي بذلها العلماء في سبيل قراءتها . وكيف الوصول الى معرفة ماهية حياة الكريتيين من جميع نواحيها اذا كانت آثار آدابهم مجهولة وما دمنا لم نجد في المصادر اليونانية أو الشرقية ما يحل محل الآثار المذكورة ؟

الا أنه اذا سكت الخط تكلمت بقايا الآثار الفنية وهذا مما يسمح لنا بالوصول الى بعض النتائج في هذه المسألة . لأنه إذا تأملنا ما أنتجه الكريتيون من المصنوعات في الفنون المختلفة (من بين الرسم أو الحفر على المعادن والتصوير على مواد شتى الى غير ذلك) رأينا أن بعض الصيغ مأخوذة بلا شك عن الفن الشرقي

وخصوصاً عن الفن المصري . ولكننا رأينا أيضاً نفوذ روح جديدة في تطبيق القواعد المختصة بالفن الشرقي ، ورأينا شيئاً من الرشاقة مما يشابه ما أحدثه اليونان أيضاً ولو في صيغ أخرى وفي أدوار تالية

واذا قابلنا بين الانموذج الشرقي والمصنوعات الكريتية ، ولاحظنا هذا التقدم وهذا الروح الجديد فليس من البعيد ان نفترض أن الكريتيين قد أحدثوا شيئاً جديدا في العلوم مثلا أو في الآداب أو في الحياة الروحية عموما وأن اليونان وجدوا في الكريتيين من سبقهم في شيء من احياء الحضارة الشرقية ومن علمهم هذا وأثر فيهم تأثيراً عميقا

هذا ما أردت ان لا أصرف النظر عنه لأدل على كثرة العوامل في تاريخ التمدن وعلى اختلاف العناصر التي أثرت على تكوين هذه الحضارة التي لا تزال حضارتنا الحالية تعتمد عليها

والآن قد آن الوقت ان نوجه أنظارنا الى اليونان والى كيفية اشتراكهم في تكوين التمدن . فقد قلنا فيما قبل ان اليونان أحدثوا انقلابا عظيما في تاريخ العمران ، إلا أنه ولو اتفق الكل على أنه قد ابتدأ منذ ظهور اليونان دور عمراني جديد صار الاختلاف شديداً في تقدير هذا التجديد . ومنهم من ذهب الى أن وظيفة اليونان انما كانت مجرد توسيع نطاق معارف قد سبقتهم اليها الامم الشرقية المختلفة

ومنهم من ذهب بالعكس الى أنه لم يصل المصريون القدماء والبابليون الاشوريون فيما قاموا به من المباحث الى ما نسميه « علماً » بل اقتصروا على التلميح الى المسائل بغير تأملها بذلك الروح الفلسفي العلمي الذي تختص به منذ الابتداء دروس اليونان في المواضع المختلفة . ويقول أيضاً أصحاب هذا المذهب (وهم الآن الاكثرية خصوصاً من بعد تقدم علم الشرق) اننا لا نجد إلا في العلم اليوناني وفي الفلسفة اليونانية أساس الفكرة العلمية الجديدة ، ولو اعتمد اليونان

في مباحثهم على ما علمهم اياه الشرقيون من المبادىء الاولى في درس الطبيعة والظواهر المختلفة مادية كانت أو روحية ، وهذا نتيجة عبقرية اليونان العجيبة التي أظهروا آثارها في الفنون الجميلة اذ ما أنتجوه من المصنوعات في التصوير وفي النقش وفي الحفر وفي الصنائع كلها يدل أيضاً على هذه الحقيقة ، أعني ان الصيغ هي بلا شك مأخوذة عن الصيغ الشرقية ثم أدخل اليونان فيها منذ القرن السادس قبل الميلاد حياة جديدة . واننا نرى في كل هذه المصنوعات نفوذ النزوع الى أعلى صور الجمال مما اشتهر به هذا الشعب الكبير

ولما كان هذا من أهم الظواهر المتعلقة بتكون الحياة الروحية ، أحببت أن أطيل الكلام في المسألة خصوصاً لكي يتبين التلامذة شأن هذه الدروس التاريخية وكثرة العوامل التي يجب علينا تقديرها وموازنتها عند درس هذا الدور الذي صارت فيه المناسبات بين اليونان والشرقيين متواصلة متينة وتكونت فيه القوة الكبيرة العاملة في وضع الشروط العامة للعمران الانساني

إذا درسنا المصادر اليونانية وجدنا شيئاً يدعو الى العجب مما كان أول سبب لاختلاف المذاهب في مسألة المناسبات بين الثقافة اليونانية والثقافة الشرقية

ان مصادر يونانية عديدة تفيدنا أن الفلاسفة والعلماء من اليونانيين القدماء سافروا الى بلاد الشرق (الى مصر ثم الى بابل والى فارس والى فلسطين) وان العلماء الشرقيين وخصوصاً الكهنة علموهم الفلسفة والعلوم . ولا بد من ايراد بعض الامثلة عن ذلك فنقول : ان أول فيلسوف يوناني ابتدع نظرية عامة في أصل العالم بصرف النظر عن البراهين الدينية كان كما تعلمون Thales المشهور وقال ان أصل الكون الماء وتبعه فلاسفة آخرون ذهبوا الى نظريات أخرى وقيل لهذا المذهب « المذهب الطبيعي اليوناني » ووقع نشوءه في القرن السادس قبل الميلاد وكان له شأن كبير في تاريخ الفلسفة اليونانية من قبل سقراط

فتقول بعض المصادر اليونانية ـ الا أنها ليست بقديمة كما سنشير الى ذلك فما

بعد عند انتقاد أخبار هذه المصادر : ـ أن Thales سافر الى مصر وكانت تسود مصر وقتئذ الاسرة السادسة والعشرون وكانت مصر في دور نهوض من بعد انحلال وان الكهنة الساكنين في منف وفي طيبة Thèbe قد علموه الجوماتري حتى أمكنه أن يصل الى اكتشافاته المشهورة في هذا العلم ثم أمكنه أيضاً من بعد التعليم المصري أن يقيس علو الهرم الاكبر مما أدهش الملك أماسيس Amasis غاية الاندهاش . وأما المبدأ الذي بنى عليه فلسفته فهو أن الماء أصل الكل فتقول بعض هذه المصادر ان Thales قد وجده في نظريات فلاسفة المصريين القدماء ثم يقال أيضاً انه من بعد الرجوع الى بلاده حث فيثاغورس Pythagoras على السفر الى مصر ليقف على أسرار الحكمة المصرية

ثم نقرأ أيضاً في بعض المصادر أن سولون Solon الحكيم المشهور ـ وكان من الحكماء السبعة ـ سافر الى بلاد الشرق وخصوصاً الى مصر وسمت هذه المصادر أسماء الكهنة في أون Héliopolis وفي Sais الذين علموه أسرار ديانتهم وفلسفتهم

وأما Pythagoras الفيلسوف اليوناني الذي أثر تأثيراً عميقا على الفلسفة القديمة وعلى الحياة الدينية فتحدثنا المصادر اليونانية واللاتينية (وليست في الاغلب من المصادر القديمة) عن أسفاره الى الشرق ونقرأ ذكر اقامته في فينيقيا وسفره الى صيدا Sydon والى مدن اخرى حيث علمه الانبياء والكهنة والفلاسفة أسرار الدين وعلم الحساب . ويقال أيضا في المصادر عينها انه انتقل الى مصر لما سمع بأن الديانة والحكمة الفنيقية مصرية الاصل فأقام بمصر أكثر من عشرين سنة وختنه الكهنة ثم دخل المعابد ووقف على أسرار الديانة وتعلم اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية والديموتيكية حتى أمكنه أن يقرأ تآليف المصريين ويأخذ عنهم النظريات الفلسفية : منها نظرية تناسخ الأرواح المعروفة ونظريته المشهورة في الاعداد ويقال أيضاً انه أقام اثنتي عشرة سنة في بابل وعلمه كهنة البابليين الحساب

وعلم الفلك والرياضة وعلم التنجيم والموسيقا وتعبير الرؤيا وانه خالط كهنة المجوس وعاشر زردشت وأخذ عنه شيئاً من مذهبه ثم لاقى العلماء والكهنة من اليهود والعرب والهنود وتعلم من البراهمة أشياء مهمة تتعلق بنظرية تناسخ الارواح وعذاب النفس من بعد الموت • ولا شك أن في كثرة هذه الأخبار وفي الافراط في التفاصيل لدلالة على شيء من الانتحال ـ كما سنبين فيما بعد ـ ولاجل ذلك أردت أن أذكر شيئا من هذه الاحاديث الغريبة

ويقال مثل ذلك عن فلاسفة آخرين : Xénephones مثلا ، أو : Démecitos. Impédorles, Anaxagosas وهم أصحاب مذاهب مشهورة من قبل سقراط ، الا أنني لضيق الوقت سأقتصر على ذكر شيء مما نقرأه في بعض المصادر من المناسبات بين فيلسوف مشهور وهو أفلاطون والمصريين وتفيدنا هذه الاخبار أن أفلاطون من بعد موت سقراط سافر الى مصر مع فلكي معروف اسمه Eudoxos وانه أقام فيها ثلاث عشر سنة ونجد أيضا في بعض الكتب ذكر أسماء الكهنة والانبياء الذين خالطهم أفلاطون في أون وفي منفيس ويقول الكاتب الجغرافي المشهور Shafo الذي سافر الى مصر مراراً في نهاية القرن الأول قبل الميلاد : ان الكهنة في اون أروه البيوت التي سكن فيها افلاطون عند اقامته في هذه المدينة

فهذا كله يدل على أنه في القرون الاخيرة قبل الميلاد والقرون الاولى من بعده خصوصا عندما انتشر القول بالمناسبة المتينة بين الحكمة الشرقية والفلسفة اليونانية ولا نجد كلمة نختم بها هذا التلميح الى آراء القدماء من اليونان في أصل الفلسفة اليونانية أحسن ملائمة من كلمة قالها كاتب نصراني من أكبر الكتاب في مصر أعني به Clemens Alexandrins اشتهر في الاسكندرية في القرن الثاني من بعد الميلاد اذ قال « ان فلاسفة اليونان الاقدمين أخذوا عن غيرهم أحسن ما نجد فيهم من المباحث ثم افتخروا بها كأنهم هم المبتدعون لهذه المباديء • ومما يدل على ذلك

أن بعض النظريات الخاصة بالمذاهب اليونانية المختلفة قد أحدثها البربر (كما كان اليونان يسمون الشعوب غير اليونانية) وخصوصاً المصريين ، ومثل ذلك نظرية تناسخ الارواح

* * *

ثم انحلت الممالك الشرقية القديمة وسادت البلاد شعوب أخرى وتكونت في الشرق صيغ عمرانية أخرى من بين يونانية ورومانية أو فارسية أو عربية وتلاشى استعمال اللغات القديمة وصارت العلامات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموتيكية أو المسمارية كانها حجاب يحجب الحقيقة ولم يتح لاحد أن يرفعه وكثرت الاقوال والخرافات والاحاديث الباطلة في الحضارات الشرقية القديمة وفي علومها وفي فلسفة المصريين والبابليين الاشوريين . فلما أراد العلماء ـ خصوصاً عند النهضة العلمية الاخيرة في القرن السابق ـ أن يتوغلوا في أسرار الحياة الادبية في الشرق القديم لم يجدوا الى ذلك سبيلا الا بالاستفادة مما تحدث عنه المصادر اليونانية أو اللاتينية أو العبرية أو العربية

فرأى البعض منهم في هذه المصادر الدلائل على الانتحال مما أقل من قيمة أخبارها ومما كان سبباً في مجادلات واختلافات كثيرة ولولا علم الشرق لبقى الامر على هذه الحالة الا أنه وجد هذا العلم في القرن السابق (وهذا فضله الا كبر) المفتاح لقراءة المصادر الشرقية الاصلية ومكننا من الوقوف على الحقيقة في مسائل عديدة منها قبل كل شيء مسألة تاريخ العمران التى نحن بصددها ومسألة المناسبات بين الثقافة الشرقية والثقافة اليونانية مما جدد روح هذه الدروس ووضعها على أساس متين

فتعمق المستشرقون في قراءة النصوص المصرية والبابلية الاشورية وهي الوف منها المحفوظة في المتاحف ومنها المنقوشة على جدران المعابد والمبانى كل وعرفوا من

بعد الامعان الطويل شيئا غير يسير من المعتقدات الدينية والاحاديث الميثولوجية والاخبار التاريخية والاوصاف الجغرافية الى غير ذلك مما دل مع ما بقي من العاديات والمعابد والآثار على الدرجة العالية التي أدركها الشرقيون في الحياة والتمدن مما أثر تأثيراً دائما على تكون الانسانية كما سنكرره في المحاضرة التالية

ثم وقف العلماء أيضا على ما أحدثه الشرقيون في مضمار العلم والفلسفة وصار من الممكن أن نعرف شيئا من كيفية اشتراك تلك الشعوب في هذه الفنون

الا أنه اذا قابلنا بين نتائج قراءة هذه النصوص وبين ما وجدناه في هذا الموضوع في المصادر اليونانية المذكورة الآن استنتجنا من ذلك ما يدعو الى الاندهاش : اذ أن أخبار هذه المصادر لا تتفق مع ما نقرأه في النصوص الاصلية لما يتعلق خصوصا بأصل العلوم والفلسفة اليونانية

اذا تأملنا مثلا العلوم الرياضية والجوماتري عند المصريين لا نجد في الأغلب ما نجده في الكتب اليونانية من روح البحث النظري وكذلك لا نجد ذلك في تآليف البابليين ولو وصلوا الى درجة أعلى في هذه العلوم مما وصل اليه المصريون

والخلاصة (ولا يسمح لنا الوقت بايراد التفاصيل في تلك المسألة) أن بين العلوم الشرقية والعلوم اليونانية فرقا بعيدا ولا يمكننا أن نقول ان اليونان اقتصروا على توسيع نطاق المعارف الموجودة من قبلهم عند الشرقيين - كما ذهب اليه البعض - بل يجب علينا أن نقول : . . . . أخذ اليونان عن الشرق مجرد المباديء الاولى وأدخلوا فيها عناصر جديدة لا أصل لها الا في فضل العبقرية العجيبة الخاصة باليونان ، حتى ارتقى البحث من الدرجة العملية التجريبية الى درجة التأمل العلمي والدرس الاسلوبي . وهذا كله مما نجد الاشارة اليه حتى فيما يقوله كاتب يوناني معروف (Eudénes Rhodioe) وكان من تلامذة أرسطو اذ قال في تاريخ العلوم الرياضية : « ان الحساب أصله في الفنيقيين وان الجوماتريه

أصلها في مصر الا أن المصريين والفنيقيين ما كانوا يرمون الا الى أغراض عملية وأما اليونان فأسسوا لأول مرة هذه المباحث على أساس منطقي وكان غرضهم مجرد غرض علمي نظري

هذا هو ما يتعلق بالعلوم وقد اقتصرنا على الرياضة والجوماتري لضيق الوقت ثم اذا تأملنا حالة المسألة من جهة الفلسفة (والكل يعرف ما بين الفلسفة والعلوم من المناسبة) من بعد قراءة النصوص الشرقية سنجد ما يشابه ما وصلنا اليه في مسألة أصل العلوم اذ فيما اوقفنا عليه من الابحاث الفلسفية لا توجد الا بعض الحكم التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير التمدن والا الاحاديث فى تكوين العالم وهى لا تزال تتصف بكثرة الرموز الدينية الملمحة لى الحقائق و بتسلط النزعة الدينية الخاصة بالشرقيين التي لها أهمية كبرى من وجهات نظر شتى الا أنه لا يمكننا أن ننسب اليها أصل ما أحدث اليونان فى الفلسفة وأظهروا ماأظهروه فيه من الميل الى درس كون الاشياء والارتقاء الى سلسلة العلل الطبيعية بصرف النظر عن الرموز الدينية ولو قال أكثر فلاسفتهم بوجود قوة فوق الطبيعة لها وظيفة فى مذاهبهم الفلسفية

وهذه الاوصاف مما عبّر عنه مؤرخ المذاهب الفلسفية اليونانية وهو الماني اسمه (Teller) قال ما معناه : ان اليونان كانوا أول من أحدث أسلوباً علميا محضا ونهجوا الطريق الى المعرفة العلمية ذات القوانين الثابتة وا كتسب اليونان لاول مرة حرية الفكر بمعنى أنهم لم يقفوا على درجة الاحاديث الرمزية الدينية بل أرادوا أن يعرفوا اختلاف العلل والاسباب الطبيعية وهذا الفرق فى أسلوب الدرس مما نجد أصله فى الاختلاف فى كيفية تأمل العالم المحيط بالانسان ،إذ الشرق القديم لا يزال غير حر أمام الطبيعة ولم يصل إذن الى بيان كيفية الظواهر وعللها الطبيعية ولم يصل أيضا الى الحياة السياسية الشخصية المستقلة . وبالعكس رأى اليونان فى العالم كله ترتيبا وقوانين ثابتة وأمكنهم أن يصلوا فى الحياة الى جمال الحرية الاخلاقية

* * *

وربما سأل سائل : وكيف الجمع بين ما قلت الآن وبين ما أطلت الكلام عليه من قبل مما تقوله المصادر اليونانية من أن أصل الفلسفة والعلوم اليونانية من الشرق ؟

والجواب أن بيان هذه المضادات بين أخبار المصادر اليونانية وبين الحقيقة التي تشير اليها النصوص الشرقية القديمة انما يوجد فى انتقاد تلك المصادر وفى تأمل عهدها والاغراض التي كان يرمى اليها الكتاب ثم أيضا فى درس الظروف السياسية والادبية فى الزمان الذي تلا فتوحات اسكندر ذي القرنين

وهذا جنس من المباحث صعب ومرتبك مما يستدعي سعة فى المعارف ودقة فى الحكم . وسنقدم مثالا منه فى المحاضرة التالية ان شاء الله

المحاضرة الرابعة

قابلنا في المحاضرة السابقة بين الأخبار التي نجدها في بعض المصادر اليونانية في أصل الفلسفة والعلوم اليونانية الشرقي ، وما وقفنا عليه عند مطالعة النصوص الشرقية الأصلية التي أمكننا درسها من بعد تقدم علم الشرق وقراءة الكتابة المصرية والكتابة البابليّة الأشورية . وقلنا ان التناقض بين نتائج هذه المقابلة بَيِّنٌ صريح ، إذ تفيدنا الأخبار المأخوذة عن المصادر اليونانية المشار اليها الآن أن أصل العلوم والفلسفة اليونانية إنما يوجد في حكمة الشرقيين القدماء وفيما أدركوه من المعارف العلمية في الفنون المختلفة . ولم نجد من جهة أخرى في النصوص الشرقية المذكورة ما يؤكد هذا الرأي . بل مما يستنتج منها أنه بين حالة العلم والفلسفة عند الشرقيين وبين حالتها عند اليونان فرقٌ بعيدٌ يمكننا أن نعبّر عنه بهذه العبارة : ان العلم في الشرق القديم لم يجاوز دور المعارف التجريبية « Empirique » والتطبيق العلمي مما نرى الأمثلة البينة منه في علم الحساب مثلا أو في الجوماترى أو في علم الفلك أيضاً . الا أنه لا شك في أن علم الفلك من الفنون التي تقدم فيها الشرقيون أكثر منهم في غيرها حتى ظن البعض كالاستاذ « Gressmann » أن لعلم الفلك البابلي الفضل الأكبر في العالم القديم ، ولكن المرجح أن البابليين والأشوريين ولو وصلوا في ذلك الى نتائج مهمة جداً ، خصوصاً فيما يتعلق بالرصد والتنجيم ، لم يجدوا السبيل الى تطبيق المبادئ العلمية العامة التي أحدثها اليونان

وفي الفلسفة أيضاً نرى ما يشابه ما لاحظناه في الحساب أو الجوماتري أو علم الفلك إذ لا نجد عند الشرقيين القدماء الا ما نسميه الحكمة ، أعني الوصايا الأخلاقية في صيغ شتى . ثم نجد أيضاً في هذه النصوص المذكورة أساطير

ميثولوجيّة تتعلق بأصل الأشياء ولها صبغة دينيّة إذ لا تشير الى كيفية التكوّن الا بواسطة الرموز أو بذكر أعمال الآلهة أو الأبطال . وأما البحث النظري وهو غرضٌ لنفسه فهذا مما كان نتيجة للعبقرية اليونانية الخاصة

والمراد اليوم ان ندرس كيف يمكننا أن نفهم سبب هذا التناقض بين أخبار المصادر اليونانية وبين ما قرأناه في النصوص الشرقية . ولما كانت النصوص الأصلية لا يشك في صحتها بل كثيراً ما أثرت عوامل شتى على أخبار التآليف التاريخية ـ علينا أن ندرس قبل كل شيء كيفية هذه الأخبار التاريخية مما يتعلق بعهدها ، وما يتعلق بمحتوياتها

واذا أثبتنا أن الاكثر منها يرجع الى الدور الذي تلا فتوح اسكندر ذي القرنين ورأينا في الزمان عينه أن أخبارها تدعو الى التشكك لغرابتها ، علينا أيضاً أن نطلب في كيفية الحياة السياسية والدينية والاجتماعية الخاصة بهذا الدور ـ أعني الدور الهلانستي ـ أسبابَ الانتحال التي يمكننا أن ننسبها خصوصاً الى ما صار في هذا الدور المذكور من اختلاط الشعوب ، شرقية كانت أو غربية ومن تبادل النفوذ

غير أنه قبل أن نتوغل في هذا الدرس لا بد لنا من أن نرد على اعتراض البعض إذ قال : أما النصوص الشرقية القديمة التي اعتمدتم عليها لتكذبوا نظرية أصل الفلسفة والعلوم اليونانية الشرقي فهي أقدم بكثير من ذلك العهد الذي ابتدأ فيه اهتمام اليونان بالمسائل الفلسفية العلمية ، اذ أول عالم يوناني أحدث نظاماً فلسفياً جديداً تاماً انما كان تاليس Thales في القرن السادس قبل الميلاد وتلاه آخرون في القرن ذاته وفي القرون الأخرى . وأما هذه النصوص الشرقية التي تدل على عدم الروح العلمي النظري المحض فيرجع احداثها الى دور أقدم بقرون عديدة من دور هؤلاء الفلاسفة المذكورين . أليس من الممكن ـ في قول أصحاب هذا

الاعتراض ـ أن تقدم العلوم الشرقية قد وقع فيما بين هذين الدورين ثم ذهب الزمان بآثار تدل على هـذا التقدّم وحال دون معرفتنا إياها حتى طبقنا على الشرق القديم كله ما يختص بدور من أدوار تكوّنه فقط

والجواب على هذا الاعتراض ما نجده في تأمل بعض الأوصاف التي يتّصف بها تكوّن الثقافة الشرقية القديمة ، ومن تلك الأوصاف خصوصاً المحافظة على القديم وتقليد ما أدركه الأجداد من النتائج في إبّان مجد الممالك الكبيرة ، وهذا من الجمود ومن عدم التغيير في الصيغ العمرانية (اللهم الا من بعد نفوذ عوامل جديدة) ما نرى مثاله بيناً صريحاً في الدين مثلا أو الفن ، ويمكننا اذن أن نفترض أن الأمر كان على ذلك المنوال ولو في العلم والفلسفة

ثم اذا أضفنا الى ذلك أنه لم يصل الينا ذكر يختص بتقدم العلم الشرقي فيما بين العهد الذي ترجع اليه نصوصنا وبين زمن الفلاسفة والعلماء اليونانيين الأولين قلنا ان حالة العلوم والفلسفة الشرقية في زمان دخول اليونان في مضمار الحضارة ربما كانت على ما كانت عليه في الزمن الغابر

وهذا الموضوع مما جادل فيه أصحاب علم الشرق وتاريخ العلوم كثيراً . وممن دافع عن الرأي الذي اخترناه الاستاذ « Spiegelberg » من أصحاب علم الآثار واللغات المصرية القديمة

والنتيجة من بعد كل ما تقدم أن الخلاف بين النصوص الأصلية وأخبار المصادر اليونانية المذكورة مما يجب علينا أن نجد أسبابه في انتقاد هذه المصادر نفسها ، وسنشير قبل كل شيء الى ما فيها من دواعي التشكك في صحتها أو في صحة أخبارها ثم نبحث عن الشروط التاريخية والعمرانية وعن العوامل المختلفة التي أدّت الى إحداث هـذه الأخبـار البـاطلة . واني ألمح بهـذه الشروط

خصوصاً الى الحياة الروحية في الشرق من بعد اسكندر ذي القرنين ، والى الاختلاط والتقارب بين العناصر المتنوعة التي وحّدت بينها غزوات ذلك الفاتح العظيم الذي مهّد السبيل لظواهر عمرانية جديدة عيّنت كيفية العمران القديم

*
* *

أول ما يدعو الى العجب عند تأمل المصادر اليونانية التي تثبت العلاقة بين علم الشرق وفلسفته وما أنتجه اليونان في هذا المضمار في ابتداء تاريخهم انما هو أن الفلاسفة القدماء أنفسهم الذين يقال عنهم انهم أخذوا مادة مباحثهم عن الشرق لا يتكلمون أبدا عن أسفارهم الى مصر أو الى بابل أو الى بلاد شرقية أخرى . وكذلك لا يقولون شيئاً يتعلق بتعلّمهم عند الكهنة المصريين أو الحكماء البابليين أو غيرهم

اذا قرأنا ما وصل الينا من تآليف تاليس Thales لا نجد أقل اشارة الى ذلك ولا نجد الا في هيرودتس خبراً يتعلق باقامة تاليس Thales في مصر

وأما الفلاسفة الآخرون من قبل سقراطس (منهم مثلا فيثاغورس Pythagoras أو امبدوقلس Impedocles أو أنا كساغورس Anaxagoras أو دموقريتس Democritos) فلا نقرأ كذلك في كلامهم ما يشير الى تأثير المذاهب الشرقية عليهم. فأول خبر نجده في الآداب اليونانية من بعد هيرودتس فيما يتعلق بالمناسبة بين اليونانيين والشرقيين خبر نقله أفلاطون في بعض كتبه قائلا: إن سولون الحكيم سافر الى الشرق . وهذا أول دليل على أنه اذا كان من الممكن أن نُسلّم بأن تاليس Thales وسولون Solon زارا مصر فانه لم يؤثر على هؤلاء الفلاسفة شيء من النظريات الشرقية إذ لا نجد أي تلميح الى ذلك في كل ماوصل الينا من تآليف جميع الفلاسفة القدماء

واذا قال قائل : من الممكن أن هؤلاء الفلاسفة أرادوا أن يكتموا هذه المناسبة بينهم و بين كهنة الشرق أو علمائه لئلا يظهر أنهم لم يكونوا المبتدعين في مبادئهم بل سبقهم غيرهم ، فالجواب أن الفلاسفة الآخرين لو عرفوا شيئاً من ذلك (وهم في بعض الأحوال في حال المنافسة فيما بينهم) لأشاروا الى ذلك في تآليفهم لينالوا من فضل منافسيهم مما لا نجد أثره في بقايا مؤلفاتهم

تكلم مثلا هراقليتس Heraclitos وامبدوقلس Impedocles وكسينوفانس Xenophanes عن نظرية تناسخ الأرواح المشهورة المنسوبة الى فيثاغورس Pythagoras ولم يشيروا الى شيء من أصلها الشرقي ، لأنهم ما كانوا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنهم ما كانوا يعرفون شيئاً من أصل الفلسفة عن الشرق عموماً

على أنه يوجد من يقول أيضاً : لم يصل الينا كل ما ألّف هؤلاء الكتاب اليونانيون ، فمن الممكن أنه فيما ذهب به الزمن منها بعض الاخبار أو بعض الاشارات التي تتعلق بعلم اليونان عن الشرقيين ، وبهذه المناسبة بين الثقافتين الشرقية واليونانية

غير أنه ليس من الصعب أيضاً أن نردّ على هذا الاعتراض الآخر قائلين : انه لو كان ذكر هذه المناسبات بين العلوم والفلسفة اليونانية والشرقية موجوداً في هذه التآليف المفقودة أو في غيرها (وفي هذا شيء من الغرابة) لاستفاد من ذلك من جاء من بعدهم من المؤرخين الذين أمكنهم أن يقرأوا آثاراً لم تصل الى أيدينا ، ومن الكتّاب الذين أرادوا لاغراضهم أن يثبتوا هذه العلاقة بين الشرق والغرب ، ولأوردوا ذكر هذه الاخبار أو هذه الاشارات عند المجادلة في هذه المسائل

والخلاصة إذن أن الفلاسفة القدماء لم يكتبوا شيئاً عن أسفارهم الى الشرق وعن تعلّمهم فيه ، اللهم الا اذا أردنا أن نثبت صحة بعض التآليف التي تنسب مثلا

الى فيثاغورس Pythagoras أو الى دموقريتس Democritos وهي منتحلة كما لم يفت بعض أصحاب الانتقاد من القدماء . وهذا أول برهان قوي يحول دون صحة هذه الاخبار المشيرة الى المناسبة بين الحضارة الشرقية والحضارة اليونانية

ثم اذا درسنا من بعد تآليف الفلاسفة أنفسهم ما كتبه غيرهم من أصحاب التاريخ أو الفنون المختلفة رأينا أنه لم يتكلم احد عن المناسبات المذكورة في القرن السادس وفي القرن الخامس الاهيرودتس والافلاطون ، وقد اقتصرا ـ كما اشرنا اليه ـ على ذكر أسفار تاليس Thales واسفار سولون Solon الى الشرق بغير أن يُحدّثوا شيئاً عن تلقيهم العلوم الشرقية

ثم في ابتداء القرن الرابع قبل الميلاد اطال الكلام على الشرق وخصوصاً على مصر كاتب اسمه ايزوقراتس Isocrates ألّف كتاباً في الدين المصري عنوانه بوسيرس Busiris ويمكننا ان نقول انه اول كاتب يونانى نجد فيه الاشارة الى هذه المناسبة بين الفلسفة الشرقية والفلسفة الغربية إذ يقول ان فيثاغورس Pythagoras تعلم عند المصريين وادخل الفلسفة في بلاد اليونان . ثم اضاف الى ذلك اشياء اخرى كاتب آخر اسمه انتيفون Antiphon وهو ـ على ما يظهر ـ معاصر لايزوقراتس Isocrates

واما قيمة ما نقرأه في ايزوقراتس Isocrates فلا بد من ان نتذكر انه كان خطيباً من الخطباء (والكل يعرف خصائص هذا الجنس الأدبي عند اليونان والرومان) وكان له في كتابه المشار اليه غرض معين دفعه ـ كما يقول هو نفسه الى شيء من المبالغة أو من ايجاد الاخبار . وكان الغرض الدلالة على أن هذا الملك المصري بوسيرس Busiris (وكان اليونان يضربون به المثل في الفظاظة والاستهتار) كان بالعكس أول من أسس العمران المصري . فلا شك أن كيفية الكتاب هذه واعتراف المؤلف مما ينال من صحة هذه الاخبار كثيراً حتى يمكننا

أن لا نصدقها اذا قابلناها بأخبار المصادر الاخرى

ثم نستطيع أن نعتمد أيضاً على برهان آخر مهم جداً يدل أبين دلالة على صحة ماذهبنا اليه من عدم تصديق المصادر اليونانية المذكورة فيما يتعلق بهذه المسألة :

لايجهل أحد أنه في القرن الرابع قبل الميلاد ظهر أكبر فيلسوف يوناني وأعنى به أرسطو الذي ألّف كتبه من بعد ايزوقريتس Isocrites بقليل . وفي الجزء الأول من كتابه المشهور « فيما وراء الطبيعة » وصف مذاهب من سبقه من قدماء فلاسفة اليونان وانتقد نظرياتهم . والمهم أننا لانجد في ذلك شيئاً يشير الى أصل الفلسفة الشرقي . ومما يزيد في شأن هذا البرهان أن من خصائص أرسطو ميله الى التعمق في كل جهة من جهات الحياة الروحية اليونانية ، وأنه من ناحية اخرى لم يصرف أرسطو النظر عن درس حياة « البربر » بل نجد في كتبه ذكر المجوس مثلا ونعرف أيضاً أنه ألّف كتاباً في عادات « البربر » .

وان الأمر لايقف عند هذا الحد ، فانه من بعد ايزوقريتس المشار اليه الان لانجد ذكرا لمناسبة بين العلوم والفلسفة الشرقية واليونانية الا في كتب نشأت في القرن الأول قبل الميلاد وفي القرن الأول من بعده . لانجد خبراً في مدة ثلاثة قرون تقريباً . وفي ذلك يذهب العلماء الى مذهبين : فمنهم من يقول انه من القرن الرابع الى القرن الأول قبل الميلاد لم تؤلف كُتبٌ يونانية تتعلق بهذه المناسبة بين الشرق والغرب ، وان المصادر المنسوبة الى القرن الأول قبل أو بعد الميلاد أحدثت هذه الأخبار بغير الاعتماد على أخبار سابقة ، ومنهم من ذهب الى عكس ذلك وهو أن في هذا الدور الهلانستى كتباً عديدة ـ وهى مفقودة الآن ـ (ومن المعروف ان كثيراً من الكتب المؤلفة في هذا الدور

ذهب به الزمان) كانت تشير إلى هذه المناسبة بين الشرق وبين الغرب ، غير أنها لم تؤلف الا بعد ايزوقرتس بسبعين سنة على الأقل

ومهما يكن من شيء فالنتيجة واحدة وهي أنه ـ بصرف النظر عن ايزوقرتس (ورأينا أنه ألف كتابه بوسيرس لأغراض خاصة ، وأنه أدخل فيه مايختص بالخطباء من الاسلوب ومن الميل الى المبالغة أو من الاستفادة من كل شيء للوصول الى غاية كلامه) لانجد قبل نهاية القرن الرابع قبل المسيح أخباراً صحيحة تشير إلى أن أصل الفلسفة والعلوم اليونانية هو في الشرق ، وانما ابتدأ الكتّاب أن يكثروا من ايراد الأخبار المتعلقة بهذه المناسبة بين القطرين في القرن الأول قبل الميلاد وفي القرن الأول من بعده ـ اذا صدقنا النظرية الأولى المشار اليها الآن (وهي تقول بأن هذه التآليف ابتدعت هذه الأخبار من تلقاء نفسها) أو بالقرن الثالث قبل الميلاد بسبعين عاماً من بعد ايزوقراتس إذا صدقنا النظرية الثانية (وهي تقول بأن الآثار المنسوبة الى القرن الأول قبل الميلاد ومن بعده اعتمدت على ما كانت تحدث عنه آثار أقدم منها يرجع بعضها إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، وخصوصاً على كتاب هيكاتاوس Hecataeus الكاتب المعروف المنسوب الى Abderg وهذا الكتاب على مايزعم البعض هو المصدر الذي أخذ عنه ديودور Diodorus أخباره المشهورة التي أدخلها في مؤلفه التاريخي ليدل على أن الفلسفة الشرقية أثرت على اليونانية)

واذن فالنتيجة ان هذه الأخبار كلها الا ماقال هيردوتس Herodotos عن اسفار تاليس Thales وما قال افلاطون Platon عن أسفار سولون Selon (وهي أخبار لاشأن لها بما يتعلق بنفس المسألة) والا أيضاً ماقال ايزوقراتس (ورأينا مارأيناه من قيمة تآليفه) لم تظهر الا في الدور الهلانستي الذي يبتدئ في نهاية القرن الرابع

وأما الدور الهلانستي فكان الدور الذي حقق الشروط التاريخية المسهلة السبيل الى اختلاط الشعوب وخصوصاً الى امتزاج الثقافة الشرقية بالثقافة اليونانيه

واذا رأينا من جهة أن المصادر اليونانية - التي تشير الى ان أصل العلوم والفلسفة اليونانية كان في الشرق - تورد في الاغلب أخباراً باطلة نرى فيها أسباب الانتحال، ورأينا من جهة أخرى انها ترجع الى هذا العهد الهلانستي، فما يقتضيه الأسلوب التاريخي الصحيح أن نطلب في خصائص هذا الدور وفيما حدث فيه من تقارب الأميال والعبقريات وما رمت اليه الاغراض السياسية والوطنية الدواعي الى ايجاد هذه الأخبار وانتسابها إلى قدماء فلاسفة اليونان

غير أنه ولو وصلنا بكل ماتقدم الى تحديد الأساس الذي يجب أن نعتمد عليه في هذا الدرس اختلف العلماء عند وصف الظروف والأسباب التي أدّت الى تغيير الحقيقة وانتحال النصوص. ولكن مما لاريب فيه أنه مهما يكن تأثير المذاهب أو الآراء المتنوعة على أسلوب الدرس في ذلك فقد أثبت التاريخ وعلم الشرق بعض الأوصاف الخاصة بهذا العهد مما لايحتمل العدول عنها كأنها أركان يرتكن عليها تاريخ التمدن كله

نرى في هذا الدور انتشار العلم اليوناني في المسكونة ونرى فيه تكوّن الحضارة الرومانية وما انتجته في السياسة وفي الفقه خصوصاً. ونرى فيه من جهة أخرى اقتراب الروح الغربي من النزعة الدينية التي كانت الامم الشرقية تختص بها. وأما الاهتمام بالمسائل المتعلقة بمصير النفس من بعد الموت فهو ماوجد اليونان الحث عليه في الأديان الشرقية وتعمقوا فيه من بعد الاختلاط مع أصحاب هذه الأديان التي أثرت من زمان قديم على أفكار اليونان وعلى خيالهم وهذان العاملان خصوصاً: أعني انتشار الثقافة اليونانية والرومانية من جهة، ومن جهة اخرى الاهتمام بالدين، مهدا السبيل الى ظهور الأديان الكبيرة العالمية والى نظام معتقداتها

وأحكامها في الصيغ الفلسفية اليونانية أو ادخالها في ظروف الهيئات الاجتماعية السياسية الرومانية مما هو أحسن مثال لنتيجة التعاون بين الشرق والغرب ومما كان أساساً لتاريخ التمدن التالى . والحق يقال انه لم يحدث توحيد بين صيغ شرقية أو صيغ غربية في الزمان التالى الاّ اعتماداً على هذا التوحيد الاول الذي وقع تكونه في العهد الهلانستى

هذا مما لابد من الاستناد اليه في كل درس تاريخي يريد أن يبحث عن تكوّن الشروط التى أدّت الى انتحال الأخبار المتعلقة بتأثير العلوم والفلسفة الشرقية على الحضارة اليونانية

وممن اشترك في هذا الدرس وأجاد فيه (ولو بالغ في بعض نظرياته) عالم الماني اسمه Höpfner أراد في كتاب له أن يعين اختلاف الأسباب التى كانت مدعاة لهذا الانتحال ـ واستفدتُ من كتابه كثيراً في هذه المحاضرات ـ وقد أشار أيضاً فيما أشار اليه إلى أغراض كهنة الشرق السياسية الذين كانوا يريدون أن يشيروا إلى فضل الشرق خوفاً من نفوذ اليونان الزائد واعتماداً على ما أثر عليهم من جلال أبنيتهم ومن أسرار أديانهم وأشار كذلك الى ميل اليونان الى المسائل الدينية وما كان من الاهمية في كل ذلك لشرح الآثار الدينية بالأسلوب الرمزى

ولكن كل هذا مما لابد أن نؤجل درسه الى فرصة أخرى مكتفين باثبات الحقيقة الثابتة أعنى انه لاسبيل الى فهم التعاون بين الشرق والغرب في أدوار التمدن المختلفة إلاّ اذا تعمقنا في تأمل تماسها الأول الذي وقع في العهد الهلانستى حيث حققت سياسة اسكندر ذي القرنين الظروف التاريخية التى سمحت بتوحيد أميال انسانية مختلفة لكل منها شأن كبير في تكوين الحضارة الحالية

غير أنه لابد لهذه الأبحاث من امعان الدرس . وعسى أن اوفق إلى إلقاء بعض المحاضرات في هذا الموضوع في السنة المقبلة ؟

فهرس

صفحة

٣ مقدمة الناشر

﴿ المحاضرة الاولى : الشرق والغرب ﴾

٥ ثقافتا الشرق والغرب صيغتان مختلفتان لحقيقة واحدة

٦ علم الشرق هو الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب

٧ التعاون بين المستشرقين والشرقيين

٧ ما هو الشرق ؟

٩ علم الشرق

١٠ الحضارة السامية والحضارة الآرية

﴿ المحاضرة الثانية : دراسة عناصر الثقافتين ﴾

١٤ توزيع العمل في الدراسة

١٥ تقدم دراسة حياة الشرق القديم

١٦ الاستكشافات الحديثة واثرها في تنوير التاريخ

١٧ جهل العلماء في حضارة الشرق القديمة ، وقولهم « النور من الشرق »

١٨ الالياذة والاناشيد البابلية ، الاناجيل وقصة جلجاميس

١٩ نظرة في خريطة الشرق

٢٠ الحثيون والفينيقيون

٢٢ اثر الحثيين في بقايا تروا Troia

٢٣ حضارة الفينيقيين

٢٤ أصل الكتابة من الشرق

٢٥ اصل الحضارة في الشرق وانتشارها التدريجي في الغرب

صفحة

﴿ المحاضرة الثالثة : دخول اليونان في التاريخ ﴾

٢٧ هل كان اليونان أول من ادخل روحاً جديداً في تامل الحقائق ؟
٢٨ هل تأثر اليونان بصنع المدن الكريتي المتأثر بالشرق ؟
٢٩ كيف اشترك اليونان في التمدن ؟
٣٠ المشابهات بين الثقافة اليونانية والثقافة الشرقية
٣١ النصوص اليونانية على نقل علم اليونان من الشرق
٣٣ مذهب المؤلف مع القائلين بان هذه النصوص صحيحة
٣٤ رايه فان اليونانيين مدينون لمبقريتهم اكثر مما هم مدينون للشرق
٣٥ قول المؤرخ الالماني تيلر ان اليونان اول من احدث اسلوبا علميا محضا

﴿ المحاضرة الرابعة : حُكم المؤلف باليونان ﴾

٣٧ رأي المؤلف في ان علم الشرق القديم لم يجاوز دور المعارف التجريبية
٣٨ شك المؤلف في صحة النصوص التي تعزو علم اليونان الى الشرق
٣٩ جواب على اعتراض
٤٠ خلو كتب طاليس وفيثاغورس وغيرهما من ذكر سفرهم الى الشرق
٤١ خلو كتب اصحاب نظرية تناسخ الارواح من الاشارة الى اصلها الشرقي
٤٢ في ان هيرودوتس وافلاطون وان ذكرا اسفار طاليس وسولون الى الشرق فانهما لم يذكرا تعلمهما في الشرق
٤٣ في ان ارسطو لم يذكر الاصل الشرقي للفلسفة
٤٥ في ان دخول النصرانية في الغرب احسن مثال للتعاون بينه وبين الشرق
٤٦ في ان المؤلف استفاد من كتاب Höpfner الالماني